دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تشكل الشبكة الحضرية فى تطوان وتطورها من 1484 الى 1860
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	السعود، عبدالعزيز
المجلد/العدد:	مج 6, ع 18
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1999
الصفحات:	26 - 30
رقم MD:	409039
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	الجوانب الاجتماعية ، تطوان ، المغرب ، القبائل العربية ، التخطيط العمرانى ، الاستعمار الاسبانى ، القبائل البربرية ، تخطيط المدن
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/409039

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تشكل الشبكة الحضرية في تطوان وتطورها من 1484 إلى 1860

ذ. عبد العزيز السعود*

بقيت تطوان التي خربت في الثلث الأول من القرن الخامس عشر خالية من السكان (*) ، إلى أن تم تجديد بنائها من قبل المسلمين المهاجرين من الأندلس . وتاريخ إعادة هذا البناء ذكرت فيه روايتان أولاهما لمؤلف مجهول صاحب "مخطوط تطوان" وللسكيرج (**) . وكلاهما من أهل تطوان ، وروايتهما هي التي يتناقلها الخلف عن السلف وقد رمز لذلك التاريخ بكلمة "تفاحة"، وهي قيمة عددية بحسب النظام الأبجدي العربي: كل من التاءين بأربعمائة والفاء بثمانين والألف بواحد والحاء بثمانية. فتكون هي سنة 889 للهجرة ، ويوافقها في التاريخ الميلادي 85-1484 ، أي قبل سقوط غرناطة في يد المسيحيين . وهذا التاريخ يتفق معه كثيرا المؤرخ البرتغالي "دافيد لوبس"(***). وقد عثر في المخطوط القديم على نظم يثبت تاريخ البناء المذكور ، ومنه هذا البيت :

قد بنيت تطاون يقينا عام تفاحة من السنينا

والرواية الثانية هو ما جاء في تقييد كناش قديم وقف عليه الفقيه محمد داود ، وهو منقول بخط العلامة سيدي العربي الفاسي صاحب "مرآة المحاسن" ، وقد كان قاطنا بتطوان وبها توفي عام 1052هـ / 1642م. ويذكر أن ابتداء بنائها كان على يد جماعة من الأندلس قدموا منها وتخيروا محلها ، وذلك في شعبان عام 898هجرية ، ويوافقه من التاريخ الميلادي 1493 ، وذلك بعد سقوط غرناطة .

ومن الملاحظ أن الروايتين تستندان معا إلى نصوص تاريخية مرجحة لايشوبها سوى نقص واحد، وهو التضارب فيما بينها في تحديد الفترة الزمنية . ونعتقد أن الأولى لها فضل التوضيح بكيفية مقنعة ، ولذلك يبدو من المنطقي ألا نتردد في الاعتماد على ماذكره السكيرج وسلفه صاحب المخطوط القديم وقبول التاريخ الذي يقدمانه .

وذكر المؤرخان التطوانيان أنه ما إن شرع القادمون في البناء حتى قاومهم سكان القبائل المجاورة للمدينة ، باعتبار أن أرضها تقع في بلادهم وتشكل مراعي لماشيتهم ، فوقعت بينهم وقائع. ثم ما لبثت تلك القبائل أن اتحدت معهم على الجهاد ضد البرتغاليين في سبتة . وانتقلت عناصر منها للاستقرار في المدينة . ثم إنه في أعقاب وصول الأندلسيين لهذه البلدة ، وفد عليها عدد كثير من يهود الأندلس الفارين من عقاب محاكم التفتيش ، وقد سمح لهم المسلمون بالنزول إلى جانبهم ومنحوهم الأرض، فأسسوا حارتهم التي عرفت

* ـ أستاذ باحث من تطوان .

بالملاح الباليقبل أن ينقلهم السلطان مولاي سليمان إلى الملاح الجديد . وسيعرف العمران انطلاقة حقيقية على يد مجدد بنائها أبو الحسن علي المنظري، الذي قام بإصلاح أسوار البلد وبنى القصبة(1).

وما بين أوائل القرن السادس عشر وأواخر القرن السابع عشر ستعرف تطوان ظاهرة حضرية جد نشيطة، بحيث أن مساحة البلد ستتضاعف تقريبا.

وبالنظر إلى تصميم المدينة آنذاك تتضح ثلاثة مجالات مورفلوجية مختلفة ، تتمثل في النواة الأولى ، وهي التي عرفت باسم "البلد" ثم الأرباض وتشمل توسعات المدينة ، وأخيرا الملاح. وهذه التباينات المورفلوجية مرتبطة بتواريخ البناء ، وبدوافع وحاجات طارئة.

ولقد مر تشكل الشبكة الحضرية بمرحلتين أساسيتين سبقتا التدخل الاستعماري الاسباني الذي أحدث تغييرا في المجال ، وخصوصا بعد فرض معاهدة الحماية واستقرار الاسبانيين بالمدينة .

- المرحلة الأولى ، وتعود إلى الفترة التي كانت فيها المدينة محدودة بسورها الأول ودامت من 1484 إلى 1580، وتتمثل في النواة (البلد) التي بناها الأندلسيون على أنقاض المدينة القديمة ، ومركزها هو القصبة التي شيدها الحاكم علي المنظري وجعلها مقرا لحكمه ، وحولها توسعت النواة الحضرية .

- المرحلة الثانية ، وترجع إلى بناء السور الثاني للمدينة من 1580 إلى 1860، وتمثلت في إحداث الربضين الأعلى والأسفل وكذلك الملاح ، وإحداث الربضين ثم بعد أن ضاقت البلد ، ولم تعد قادرة على استيعاب الوافدين الجدد وخاصة المورسكيين المطرودين من اسبانيا . وأما الملاح فتم تحويله من موضعه القديم بالبلد إلى موقع آخر على يد السلطان مولاي سليمان سنة 1808. وتنتهي هذه المرحلة باحتلال مدينة تطوان من قبل الجيوش الاسبانية عام 1860.

.النواة : البلد :

بناها الأندلسيون على أطلال تطوان البربرية القديمة،وقد وصفها سيدي العربي الفاسي في تقييده:"إنها بلد مربع وقصبتها في ركنها ولها ثلاثة أبواب وسورها في عرضه سبعة أذرع ، ودار بالسور الأول سور ثان وبعده دارت الحفائر وأعظمها حفير القصبة . ويعلو البلد من جهة الجوف جبل بنى عليه المنظري قصبة أكملها في عشرين سنة"(2).

إن الوصف الذي قدمه العربي الفاسي يتيح لنا بعض الاستنتاجات حول الدوافع الملحة لتشكل النواة الأولى (يعني اختيار المربع)، ثم القصبة أو البرج في الأعلى ، وتأثيره على التشكل الحضري لهذه النواة. فقد كان الهاجس الأساسي عند الوافدين من الأندلسيين هو التحصن لأجل حماية المدينة من الغارات الخارجية التي يقوم بها الإيبيريون انطلاقا من المواقع المحتلة مثل سبتة وطنجة وأصيلا، وكذلك لمدافعة الجبليين الذين كانوا متضايقين من ذلك البناء. وإن طبوغرافية الموضع الذي أقيمت فيه هذه النواة يدعم الخطة العسكرية للقاطنين ، فالقصبة المحصنة بالأسوار المتينة ، والأبراج في الزاوية الجنوبية الغربية للبلد ، تشرف على الجرف وتسمح بمراقبة الملاحة في نهر مرتيل. وقد جعل

الحاكم المنظري من هذه القصبة "دار الإمارة" لتدبير الشؤون السياسية والعسكرية ، وحولها توسعت النواة الحضرية باستقرار أعداد متزايدة من المهاجرين . وكان هؤلاء في أول عهدهم يجعلون بجانب دورهم حدائق واسعة ، ثم بدأت هذه العادة تنقص بسبب ضيق المجال وبتكاثر السكان قبل بناء أرباض المدينة.

ويخضع الأساس المورفلوجي لهذه النواة إلى تنظيم عائلي يستند في الغالب إلى عنصر النسب، بحيث يمكن القول إن مجموعة الدروب والزنقات التي تكون حومة البلد تشكل تقريبا - على المستوى النظري - مدونة لأسماء العائلات الأندلسية وحتى غير الأندلسية التي استقرت بالمكان. ويؤلف كل درب مجموعة من الدور ، وتحتل مركزه أول دار شيدت بالموضع . وكما توجد داخل كل حومة تقطنها عائلات لها وزن اجتماعي بالمدينة زاوية أو مسجد ، وكذلك بعض التجهيزات العمومية كالحمامات والفرارين ، وهي عادة ماتحمل اسم مالك القطعة الأرضية . ولصيانة هذه المرافق ودوامها كان الأهالي يحبسون عليها قسطا من متروكهم. وكمثال على ذلك ندرج وصية نصها كما يلي " الحمد لله أوصى السيد عبدالله بن الفقيه السيد الحاج علي امدينة التطواني أنه مهما حدث به الموت الذي لابد منه ولامحيد لمخلوق عنه فإنه يخرج من جميع متخلفه أي شيء كان العقار وغيره الثلث الواحد ويوقف في واجبه بالحمام الذي لهما بسوق المطامر وفي دار منضوصة الكبرى بزنقة البروبي وفي طرفين من الأرض خارج باب العقلة إحداهما يقال له فدان الزعزوفة والآخر فدان الغزاوي ويصرف ربعه في شراء الخبز وتفرق على الفقراء والمساكين كل يوم خميس على العادة بتطوان وثلاثة أرباعه لأولاد أولاده ... وفي سادس عشر ربيع الثاني عام 1234. عبد الرحمان بن بوسلهام ومحمد بن عبد الوهاب الحسني العلمي"(3) (العدلان).

.الأوبـــاش :

لم تكن توجد عند مجيء المورسكيين في أواسط القرن السادس عشر سوى نواة حضرية وحيدة شكلها "البلد" ، ولكن توافد موجات جديدة أدى إلى وجود فيض سكاني الأمر الذي دفع إلى توسع المدينة بشكل كبير ومتزامن تقريبا في اتجاه شمال البلد وجنوبه . فأحدث ربضان أحدهما عرف بالربض الأعلى وهو واقع في أعلى المدينة و ويتصل بجبل درسة المشرف عليها من جهة الشمال ، وعرف الآخر بالربض السفلي ، وهو يقع أسفل المدينة بينها وبين السهل الفسيح المنخفض عن المدينة ، والمتصل جنوبا بجبال بني حزمر وشرقا بشاطيء البحر المتوسط. وكان الربض الأعلى يشمل حومات السوق الفوقي وما اتصل به وزنقة المقدم والطالعة. ثم وقع التوسع فأضيفت له حومتان كبيرتان وهما الطرنكات والعيون. ولما أحيط كل ذلك بسور جديد وقع الاستغناء عن الباب القديم الذي كان في الناحية الغربية من المدينة ، وجعلت بدله ثلاث أبواب ، وهي باب المقابر شمال البلد ، وباب النوادر في الجهة الشمالية الغربية للمدينة ، وباب التوت في غربها. وأما الربض السفلي فكان يضم بدوره عدة حومات منها الجنوي والسويقة والمنجرة وقاع الحافة، وأنشيء سور جديد جعل فيه بابان هما باب العقلة وباب الرموز(4).

وكانت مسألة حيازة الأرض التي شيد عليها الربضان المذكوران خاضعة للموقف المتسامح والمتعاضد الذي سلكه المستوطنون الأول ، فبموافقتهم الضمنية ، وعن طريق تملكهم بالتقادم للأرض ، فقد كرسوا حق المالكين الجدد. وستندمج هذه الأرباض في إطار نسق اقتصادي واجتماعي جديد يمكن نعته ب "الجهوية" ويعني نوعا من التمييز السوسيو- مجالي ناتجا عن توزيع المجال الحرفي إلى حومات متخصصة . وتختلف مورفلوجية هذه الحومات عن النواة الأولى (البلد) اختلافا محسوسا لاسيما حومتي الطرنكات والعيون ، فهما لاتمثلان في الواقع تعاقب الدروب التي تكرس الأنساب ، بل تشكلان مجموعة من البناءات الموازية لمناطق الإنتاج والتبادل ، واعتبرت شبه "معازل" خصصت لاستقرار الجماعات "غير المدينية" التي استقطبها الازدهار الحضري(5)، وظلت مع ذلك لفترة معينة محتفظة بعاداتها ولهجات مواطنها الأصلية التي حافظت على صلات واسعة معها ، وكانت تلك العناصر الوافدة من ناحية جبالة والريف تتجمع حسب مصادرها للتخصص في مزاولة بعض الحرف . وكان قرب المساكن من تجمعات الطوائف الحرفية كالحدادين والنيارين والدباغين وغيرهم يسهل إقامتهم .

- الملاح (البالي) :

في عهد قريب من بناء الربضين، وقع توسع في شرق المدينة ، وفتح بابان هما باب السعيدة وباب الجياف . وقد كان الملاح واقعا في الشمال الشرقي قريبا من الباب الأخير ، وأنه ظل عامرا باليهود وكذلك بالأوربيين الذين كان يسمح لهم بالإقامة به إلى أن بني المسجد الأعظم بالقرب منه .فلاحظ الناس للسلطان أن ملاح اليهود يكاد يكون متصلا بالجامع المذكور ، فقرر السلطان مولاي سليمان تحويل الملاح من مكانه القديم ، وهو المعروف (حاليا) بالملاح البالي ، ويقع في وسط حومة البلد حيث سكنى المسلمين ، فأصدر ظهيرا مؤرخا بفاتح جمدى الأولى عام 1222 (1807) إلى القائد الحاج عبدالرحمن أشعاش يعلمه بتعيين الملك المعروف بالرياض من تطوان ، والذي هو من أملاك المخزن بجميع حدوده ، ومنحه ليهود تطوان ليقيموا فيه ملاحهم ، ويبنوا فيه دورهم وحوانيتهم ، وعلى كل من يملك دارا منهم في البلد أن يبيعها للمسلمين ، ويبني بثمنها دارا أخرى في المكان المعين(6). ولم تكن الجماعة اليهودية في تطوان قبل ذلك التاريخ كثيرة العدد ، ولكن مالبث أن تضايق الملاح بعد توافد عدد مهم من يهود فاس ومكناس فرارا بأنفسهم من اضطراب الوضعية الأمنية ومن الأوبئة والمجاعات (7).

ومنذ أواخر القرن السادس عشر أضحت المدينة كيانا حضريا متكاملا بعد أن تم تجاوز حالة "المدينة ـ الملجأ" ، وتم إبرام السلم مع الحامية البرتغالية بسبتة ، وزواج السلطان الوطاسي بالسيدة الحرة(*). وبذلك تم الشروع في الأشغال العامة حيث وقع تزويد المدينة بنظام لتوزيع المياه ، وانتظمت هيئات الحرفيين ، وصارت المدينة محتوية على خمسة أقسام كل قسم منها يسمى حومة ، لها حدودها الخاصة ، ويقوم بتدبير شؤونها مقدم يعينه سكانها بعد موافقة قائد المدينة . وكانت كل حومة تحقق نوعا من الاكتفاء الذاتي ، فتتوفر على عدة مساجد ، وقنوات عمومية ، وحمامات ، وفنادق، وسوق يمارس فيه نشاط تجاري ، وتجمع حرفي يضم بعض التخصصات .

وبموازاة مع اتساع ظاهرة التمدين التي عرفتها تطوان منذئذ ، أخذت عملية استحواذ الحضريين على المحاط القروي تزداد بكيفية ملموسة ، وذلك عن طريق تملكهم للجنانات والعزايب ، فبالإضافة إلى الدور الذي تقوم به هذه في تزويد المدينة بالمنتجات الفلاحية ، فإنها اعتبرت من علامات النفوذ والتأثير والوضع الاجتماعي الخاص. إلا أن تداخل المجال الفلاحي الذي تستغله المدينة مع جيرانها من المداشر سيفرز نزاعا سيدوم مئات السنين .

وكانت مدينة تطوان قد خضعت لاحتلال القوات العسكرية الاسبانية بعد الحرب التي فرضتها اسبانيا على المغرب في شتاء 1859. وخلال مدة الاحتلال الذي دام سنتين تعرضت كثير من الأماكن في المدينة لعملية الهدم وتغيير المعالم ، وكان بعض هذه الأعمال لفتح طرق المواصلات بين مختلف جهات المدينة ، أو لتسهيل الدفاع عنها وتحصينها ، وبعضها لتوسيع الطرق وتحسينها إذ كانت ضيقة ، أو لفتح ساحات داخل المدينة . وقام الإسبان كذلك بوضع أسماء جديدة إسبانية لجميع ما في تطوان من أبواب وأبراج وساحات وشوارع ودروب.

الهـــوامـــش :

*) ـ تتحدث الأخبار البرتغالية عن تخريب تطوان عام 1437م لما هيأ "دوارطي منيسيس" ابن الحاكم البرتغالي بسبتة حملة ضدها وقد قام البرتغاليون بهدم أسوار المدينة ومساجدها وأحرقوا أبوابها ودورها.

**)ـ الأول تقييد يحتوي على بضع صفحات عثر عليه المرحوم محمد داود ، وهو في ذكر أخبار تطاوين ، ولم يتحقق من معرفة اسم صاحبه ، ويذكره كذلك بالمخطوط القديم . والثاني هو أبومحمد عبدالسلام سكيرج ،مؤرخ تطوان ، ومؤلفه لازال مخطوطا في الخزانة الداودية ، "نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها وتقرر من الأعيان". وتوفي عام 1250 للهجرة .

***) - David Lopes , Os portugaises, in Historia do Portuqual . T. III.

(1 - Fernando de Carranza , Sidi Abul-Hassan Ali Al - Manzari , Archivos del Instituto de Estudios Africanos, n° 13, Cuatrimestre agosto 1950.

2) ـ تقييد مخطوط حول تطوان موجود في الخزانة الداودية .

3) ـ رسم خاص في الخزانة الداودية ، بدون رقم ، تطوان .

4) ـ محمد داود "تاريخ تطوان" مطبوعات معهد مولاي الحسن ، المجلد الأول ، تطوان ، 1957 ، ص :

(5 - Karim Dellero: Essai de présentation de la production urbaine ...à Tétouan, La cambre , 1985, p : 9.

6) ـ محمد داود : تاريخ تطوان ، ج 1 ، ص :100.

(7 - I.D.Abdou , Musulmans andalous , et Judéo- espagnols , Casablanca,1953,p : 403.

*)ـ وتسمى عائشة بنت علي بن راشد العلمي صاحب مدينة شفشاون ، وصارت فيما بعد تدعى بالست الحرة ، وقد حكمت نوعا ما في تطوان عندما كانت زوجا للحاكم علي المنظري ، ثم تزوجت فيما بعد بسلطان فاس أحمد الوطاسي .